الفصل الأول

أثر الحرب العالمية الأولى في العرب

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى في أول أغسطس (آب) سنة ١٩١٤، لم يكن قد بقي من أقطار الشرق العربي، بل العالم العربي كله، تحت الحكم العثماني، سوى أقاليم الهلال الخصيب (بلاد ما بين النهرين - العراق- والشام)، إضافة إلى بعض أجزاء من شبه الجزيرة العربية، وقد كانت الحرب العالمية الأولى حدثاً فاصلاً عميق الأثر في مستقبل ومصير هذه الأقطار، فقد انتقلت من عهد له سماته إلى عهد آخر تختلف سماته تماماً.

ذلك أن دخول الدولة العثمانية التي كانت لا تزال تخضع لها هذه الأقطار العربية في الشرق الحرب إلى جانب دولتي الوسط (ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر) ضد بريطانيا وحليفتيها من دول الوفاق الحلفاء: فرنسا وروسيا)، أدى إلى قيام أخطار عديدة شديدة من جانب الشرق العربي (العثماني)، بسبب وقوعه على الطريق إلى الهند، وإطلاله على البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي، وتهديد فارس ومصفاة النفط التابعة للشركة الأنجلوفارسية في عبدان، ناهيك عن سلاح الجهاد الديني الذي أشهرته الدولة العثمانية في وجوه أعدائها، من ثم حاولت بريطانيا خاصة أن تتصدى لدرء هذا الخطر الذي يهددها أكثر من حلفائها، وكانت الوسيلة التي اتبعتها بريطانيا تعتمد أساساً على استخدام عرب المشرق أنفسهم سلاحاً تشهره في وجوه حكامهم العثمانيين وتشجيعهم على الثورة، هذا إلى جانب القيام ببعض العمليات العسكرية التي كان مسرحها أقطار المشرق العربي، مثل الحملة البريطانية

القادمة من الهند لغزو العراق سنة ١٩١٤، والحملة البريطانية المنطلقة من مصر لغزو الشام سنة ١٩١٧[١].

فقد كانت بريطانيا تعلم وتدرك أنه في السنوات السابقة لنشوب الحرب العالمية الأولى مباشرة، في ظل حكم الاتحاديين الترك عم السخط في أقطار المشرق العربي على الحكم العثماني، وصارت الهوة سحيقة بين العرب والترك بسبب سياسة الاتحاديين التي ضاق بها العرب ذرعاً، وتكونت جمعيات وأحزاب سياسية علنية وسرية، تدعو لأن يكون للعرب كيان خاص في داخل الدولة العثمانية، مثل العربية الفتاة والعهد، ومن ثم شرعت بريطانيا على الفور تستخدم سلاحاً مزدوجاً ضد الدولة العثمانية، فاستخدمت سلاح القومية، لبث الدعاية بين العرب وإثارة النزعة القومية لديهم من جهة، كما استخدمت سلاح الدين، عندما توصلت إلى اتفاق مع شريف مكة (المركز الروحي للعالم الإسلامي) لإبطال مفعول دعوة السلطان العثماني إلى الجهاد، وهكذا رأت بريطانيا أن تستخدم العرب لضرب الدولة العثمانية.

ولكن مع أي المجموعات العربية تتعامل بريطانيا، وأيَّها تستخدم لضرب الإمبراطورية العثمانية؟ لقد كانت الحركة العربية في الشام أكثر نضجاً، وزعماؤها أصلح العناصر وأقواها وعياً من الناحية السياسية، أكثر من أي منطقة أخرى في الشرق العربي، ولكن بلاد الشام قريبة من مقر الدولة العثمانية، وتوجد بها حشود كبيرة من القوات التركية بقيادة أحمد

(١) د. محمد أنيس، د. السيد رجب طرز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٦٧، ص٣٥٤.

جمال باشا أحد عمد حكومة الاتحاديين، ويمكن تعزيزها بسهولة، وإضافة إلى ذلك إذا أثارت بريطانيا ثورة عربية في الشام، فإن فرنسا هي التي سوف تجني ثمرتها، وإلى جانب ذلك كانت بريطانيا تدرك أنه من الصعب إخضاع الحركة القومية العربية وزعمائها في الشام خضوعاً مطلقاً لمخططات بريطانيا في المنطقة[1].

ومن ثم اتجهت بريطانيا إلى الجزيرة العربية وإلى الشريف حسين بن علي أمير مكة، فالحجاز بعيد عن مقر الدولة العثمانية، واحتمال نجاح الثورة فيه أكبر، وفي الحجاز تقع الأماكن المقدسة الإسلامية، وتستطيع بريطانيا أن تضمن استمرار حج رعاياها المسلمين، والشريف لذلك - ولكونه من الدوحة النبوية- سيكون سلاحاً فعالاً في فل سلاح الجهاد الذي شهره السلطان الخليفة العثماني في وجه بريطانيا، وإلى جانب ذلك كانت بريطانيا تعلم بقيام خلاف بين الشريف وحكومة الاتحاديين، حول مركزه وصلاحياته في الحجاز، كما أنه من الممكن التعامل معه بسهولة وإقناعه بالارتباط ببريطانيا بعد الحرب، بعكس الزعماء القوميين في الشام، ولما كانت السلطات البريطانية تفكر في الاستفادة من الشريف، وجهت إليه الدعوة لكي يقوم عرب الحجاز بالثورة على الدولة العثمانية، وفي مقابل ذلك تتعهد بريطانيا بالحيلولة دون أي تدخل في شبه الجزيرة العربية.

وفي هذا الوقت، بعد أن كان الشريف حسين لا يطمع في أكثر من ضمان مركزه في الحجاز، بدأ يتطلع إلى قيام مملكة عربية تضم أقطار الشرق العربي الآسيوي، وصادف أيضاً أنه في نفس الوقت الذي كانت فيه بريطانيا

(١) توفيق برو، العرب والترك، بيروت ١٩٣٥، ص ١٥٨ .

تبحث عن زعامة دينية تساندها في الحرب ضد دولة الخلافة العثمانية، كان القوميون العرب في دمشق يبحثون هم أيضاً عن زعامة دينية تقودهم في نضالهم القومي حتى لا يسهل ضرب حركتهم القومية بالدين، وحتى لا تتهم حركتهم بالخروج عن الإسلام، وشق عصا الطاعة على أمير المؤمنين الخليفة، وذلك بعد أن يئسوا من الإصلاح على أساس اللامركزية والحكم الذاتي، ولذلك اتصلوا بالشريف حسين في يناير (كانون ثان) سنة ١٩١٥، ووافق الشريف على ميثاق (بروتوكول) دمشق الذي وضعه القوميون، والذي كان ينص على أنه -مقابل قيام العرب بالثورة على الترك- تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية داخل حدود معينة، بحيث تشمل العراق والشام والجزيرة العربية باستثناء عدن[1].

وعلى هذا الأساس، دخل الشريف حسين في مفاوضات مع بريطانيا، وهي ما عرفت بمراسلات الحسين مكماهون، ولكن بريطانيا أرادت التهرب من تحديد حدود منطقة الاستقلال العربي، وإزاء إلحاح الشريف وافقت ولكنْ باستثناءات تهدف إلى تحقيق أطماعها في العراق وأطماع حليفتها فرنسا في الشام، وكان رد الشريف على هذه الاستثناءات موافقته على التنازل عن جنوب العراق لبريطانيا فترة محددة مقابل مبلغ معين، كما يوافق على التنازل لفرنسا عن سواحل الشام بشروط مماثلة، بدعوى رغبته في عدم تكدير العلاقات بين بريطانيا وفرنسا والحرب دائرة رحاها، وأنه سينتهز أقرب فرصة بعد انتهاء الحرب للمطالبة بما غض النظر عنه في أثناء الحرب، وقد عبرت بريطانيا عن سعادتها لموقف الشريف والتزمت

(١) قتيبة أمين شموط، النهضة العربية الحديثة، ص ١٥٤ .

الصمت، الذي فسره الشريف على أنه موافقة من جانب بريطانيا على وجهة نظره، وهكذا جازف الشريف حسين بالانضمام إلى بريطانيا دون الحصول سلفاً على ضمانات مؤكدة إلا على وعود غامضة، كما أن موافقته كانت تتضمن تعديلاً في بروتوكول دمشق، لا يملك الشريف الحق في إجرائه، ومن حق الزعماء القوميين عدم الالتزام بهذا التعديل، ولكن المراسلات كانت سرية ولم يعلم بها أحد إلا بعد انتهاء الحرب[1].

ويرى بعض المراقبين المحايدين المعاصرين للأحداث، أن بريطانيا بمحاولتها كسب الشريف، إنما كانت تسعى إلى تحقيق هدفين، أحدهما قريب وهو إبطال مفعول الحرب الدينية التي أعلنها الخليفة، وتهدئة المسلمين داخل الإمبراطورية البريطانية وخارجها، وكسب ولاء عرب الشام والعراق، وضمان معونة القبائل القاطنة على جانبي القوات البريطانية في العراق وسيناء، حتى لا تعرقل تقدمها أو تهدد مواصلاتها.

أما الهدف الآخر، فهو هدف بعيد وهو سعي البريطانيين لكي يقيموا - بعد الحرب- دولة أو دولاً إسلامية مستقلة (اسماً) على أنقاض الإمبراطورية العثمانية المتداعية، على أن تكون هذه الدولة أو الدول تحت شكل ما من أشكال السيطرة البريطانية، وتخدم بديلاً للإمبراطورية العثمانية، وتقوم بدورها التقليدي في حماية مواصلات بريطانيا مع الهند.

ووفى الشريف بوعده لبريطانيا، وأشعل ثورة في الحجاز في يونيو (حزيران) سنة ١٩١٦، ونجح رجاله في طرد الترك من الحجاز، بحيث لم تبق لهم إلا حامية شبه معزولة في المدينة المنورة، وبعد ذلك دخلت الثورة

(١) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص ٢٥٤-٢٥٧.

العربية في مرحلة جديدة، عندما كون الشريف قوة نظامية استعان في تدريبها وقيادتها بضباط وجنود من العرب الذي أسرتهم بريطانيا، واستولى هذا الجيش على العقبة في يوليو (تموز) سنة ١٩١٧، ومنها انطلق ليكون ميمنة الحملة البريطانية، التي شرعت في أواخر سنة ١٩١٧ في التقدم من مصر نحو الشام بقيادة الجنرال اللنبي Allenby، ولم يأت خريف سنة ١٩١٨ حتى سقطت دمشق، ودخلها فيصل بن الحسين الذي استقبله الأهلون استقبالاً حماسياً، ولكنه لم يلبث أن صدم صدمة كبرى، إذ تلقى اللنبي تعليمات من حكومته بوقف التيار العربي الجارف، وإغلاق الطريق أمام فيصل، وأن يضع في اعتباره اتفاقية سايكس/ بيكو Sykes/Picot.

ذلك أنه بينما كانت المراسلات جارية بين الشريف حسين ومكماهون (المعتمد البريطاني في مصر)، كانت هناك مباحثات أخرى تجري بين بريطانيا وحليفتيها روسيا وفرنسا، من أجل اقتسام الممتلكات العثمانية بما فيها الشرق العربي، وتمخضت هذه المباحثات عن اتفاقية سايكس/ بيكو السرية، التي نصت على أنه مقابل حصول روسيا على المضايق:

(١) تقام دولة عربية مستقلة أو اتحاد من الدول العربية تحت رئاسة رئيس عربي في داخلية الشام حتى الموصل (المنطقة «أ») وداخلية العراق (المنطقة «ب»). على أن يكون لفرنسا في المنطقة الأولى ولبريطانيا في المنطقة الثانية حق الأولوية في المشروعات والقروض وتقديم المستشارين والموظفين (أي سيطرة أجنبية غير مباشرة تختفي وتتستر وراء رئيس عربي).

(٢) يسمح لفرنسا في ساحل الشام غربي خط دمشق / حمص / حماة

(١) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص ٣٦٢-٣٦٤.

/ حلب (المنطقة الزرقاء)، ولبريطانيا في العراق الأدنى جنوبي بغداد (المنطقة الحمراء) بإقامة إدارة مباشرة (أي سيطرة أجنبية مباشرة).

(٣) تقام إدارة دولية في فلسطين (المنطقة البنية).

(٤) تحصل بريطانيا على ميناءي حيفا وعكا.

خريطة سوريا الكبرى في العهد العثماني

ولقد كانت هذه الاتفاقية طعنة للشريف حسين وللعرب، فهي مناقضة لما فهمه الشريف من اتفاقه مع بريطانيا، كما أن اتفاقية سايكس/ بيكو مزقت منطقة الشرق العربي للحيلولة دون تقدمها ووحدتها واستقلالها، وعندما علم الشريف حسين بأمر الاتفاقية واستفسر من حليفته لم تعدم هذه وسيلة للتهرب والخداع، فاستمر في ثقته ببريطانيا معتقداً أنها ستقف إلى جانبه بعد الحرب، وكان ممثلو بريطانيا في الشرق العربي، وعلى رأسهم لورنس يغذون هذا الشعور.

ولم تكن اتفاقية سايكس/ بيكو هي الطعنة الوحيدة التي وجهتها بريطانيا لعرب المشرق، بل وجهت إليهم طعنة أخرى دامية لا تزال الدماء تنزف من جرحها حتى اليوم، وذلك عندما أصدر وزير خارجية بريطانيا في ٢ من نوفمبر (تشرين ثان) سنة ١٩١٧ تصريح بلفور Balfour، الذي وعدت فيه الحكومةُ البريطانيةُ الصهيونيةَ العالميةَ بأنها ستعمل على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[١].

وليس هنا مجال بحث الأسباب التي دفعت بريطانيا إلى إصدار هذا التصريح، ولكن يهمنا أمران: أولهما أن هذا التصريح كان يتعارض مع اتفاق بريطانيا مع الشريف حسين، فمما لا شك فيه أن فلسطين كانت ضمن المنطقة التي وعدت بريطانيا بالاعتراف باستقلال العرب فيها، ولم تكن فلسطين ضمن المنطقة المستثناة من منطقة الاستقلال العربي، وإذا كان البريطانيون بعد ذلك ادعوا أن فلسطين كانت ضمن المنطقة المستثناة، باعتبارها تقع غرب مناطق دمشق/ حمص/ حماة/ حلب، فإن المنطقة

(١) د. أحمد طربين، الوحدة العربية، دمشق ١٩٨٠، ص ٢٧٥-٢٧٧.

الواقعة غرب خط دمشق/ حمص/ حماة/ حلب هي الساحل السوري (لبنان) وليست فلسطين[1].

أما الأمر الثاني فهو موقف الزعامة العربية الممثلة في الشريف حسين من هذا التصريح، إذ يلاحظ أنه مثلما جازت عليه من قبل خدعة «العظمة البريطانية» بشأن اتفاقية سايكس/ بيكو، فقد جازت عليه خديعتها مرة أخرى مع الفارق، واستخدمت معه بريطانيا سلاح الترهيب والترغيب لإسكاته وإرغامه على قبول الأمر الواقع، وبخاصة أنه كان يجهل تماماً حقيقة الصهيونية ونواياها، فاستمر يثق ثقة تامة في كل ما تقرره «العظمة البريطانية»، حتى لقد أوصى أتباعه وقواته المشتركة في القتال بالاستمرار في الثقة بوعود بريطانيا، ودعا الشعب العربي في فلسطين إلى الترحيب باليهود كإخوة والتعاون معهم من أجل الصالح العام.

وهكذا نرى أن بريطانيا كانت تتبع في أثناء الحرب سياسة متناقضة لها أكثر من وجه: فهي تتفق مع العرب، ثم تتفق مع فرنسا (سايكس/ بيكو) على اقتسام الشرق العربي فيما بينهما كمناطق نفوذ، وهذا يتعارض مع الاتفاق مع العرب، ثم تمنح للصهيونية وعداً يتعارض مع هذا وذاك، وفي محاولة من البعض لتفسير هذا الموقف من بريطانيا وتسويفه، يذهبون إلى أنه كانت هناك قوى عدة يهم بريطانيا إرضاءها.

وكانت أهداف هذه القوى متعارضة تماماً، فتحالفت مع العرب من أجل إحلال الهزيمة بالدولة العثمانية، وإقامة حكومات عربية في بعض مناطق الشرق العربي، بحيث تكون تحت حمايتها، وفي الوقت نفسه كان

(١) د. محمود منسي، تصريح بلفور، القاهرة ١٩٧٢.

على بريطانيا أن تدخل في حسابها أطماع فرنسا في الشام، وادعاءات الحركة الصهيونية في فلسطين، ورغبة حكومة الهند في السيطرة على العراق كخط دفاع أمامي عن الهند، وحماية آبار النفط بالسيطرة على رأس الخليج، وفي الوقت نفسه، لم تكن بريطانيا راغبة في تشجيع الحركة القومية العربية إلى الدرجة التي تصبح فيها خطراً على مركز بريطانيا ذاتها في مصر، فحاولت بريطانيا إرضاء الأطراف المختلفة، بأن تعد كل طرف بما يصبو إليه على أمل أن يصير من المحتمل التوفيق بطريقة ما بين المطالب المتعارضة فيما بعد، وبعد أن تضع الحرب أوزارها، وإلى جانب ذلك لا بد أن نضع في اعتبارنا أنه لم تكن هناك هيئة بريطانية واحدة تخطط السياسة البريطانية في منطقة الشرق العربي، فانعدم التنسيق بين وزارات الحربية والخارجية ودار المندوب السامي في القاهرة وحكومة الهند[1].

الاضطراب في الشرق العربي بعد الحرب

وكان من الطبيعي أن يترتب على سياسة بريطانيا المتناقضة إزاء الشرق العربي في أثناء الحرب، أن يغشى المنطقة اضطراب شديد بعد انتهاء الحرب، إذ أصبح يساور بريطانيا شعور بأنه من الممكن التحلل إلى حد ما من تعهداتها لفرنسا لمصلحة العرب أو بالأحرى لمصلحتها هي، ويتضح هذا بوضوح في أثناء انعقاد مؤتمر الصلح بباريس في يناير (كانون ثان) سنة ١٩١٩، والذي حضره فيصل نيابة عن والده، بعد أن شكل حكومة عربية في داخلية الشام (دمشق) في ٥ من أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩١٨ .

(١) محمود منسي، تاريخ الشرق العربي المعاصر، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٧ .

وعندما وصل فيصل إلى باريس، كانت سياسته تقوم على أساس الحصول على تأييد بريطانيا في مقاومة مطالب فرنسا في الشام، الأمر الذي أثار شكوك فرنسا في أن فيصلاً صار أداة في يد بريطانيا لمقاومة مطالب فرنسا، مما أدى إلى تشدد فرنسا في معاملتها لفيصل، بل وصل الأمر ببريطانيا إلى الإيحاء لفيصل بأنه ما دامت الصهيونية تعارض سيطرة فرنسا على فلسطين، فإنه من الممكن أن تعاونه الصهيونية في زحزحة فرنسا عن بقية الشام، وبطبيعة الحال مقابل تسليم فيصل بأطماع الصهيونية في فلسطين[1].

واستمرت مناقشة المسألة السورية في مؤتمر الصلح بضعة أشهر، واتضح خلالها اشتداد الخلاف بين بريطانيا وفرنسا، الأمر الذي أدى إلى سخط الرئيس الأمريكي وودرو ولسن Woodrow Wilson صاحب مبدأ حق تقرير المصير Self-Determination، وإعلانه أنه يجب ألا يتقرر شيء إلا بموافقة المحكومين، واقترح تكوين لجنة دولية لكي تذهب إلى الشام وإلى المناطق المجاورة (العراق) إذا لزم الأمر، للتعرف على رغبات الأهالي وتقديم تقرير إلى مؤتمر الصلح، وعارضت فرنسا اقتصار بحث اللجنة على الشام دون العراق، في حين عارضت بريطانيا زيارة اللجنة للعراق، ولم تلبث أن امتنعت الدولتان ومعهما إيطاليا عن إرسال مندوبيها، وبذلك اقتصرت اللجنة على المندوبين الأمريكيين، ومن ثم عرفت باسميهما (لجنة كنج/ كرين) King/Crane، واستمرت زيارة اللجنة للشام خلال الفترة من ١٠ من يونيو (حزيران) إلى ٢١ من يوليو (تموز) سنة ١٩١٩ .

(١) صلاح العقاد، المشرق العربي المعاصر، ص ٣٥٤-٣٥٥ .

وكانت مطالب أهل الشام للجنة تتلخص في رفض المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، والتي كانت تنص على وضع الأقطار التي كانت خاضعة للدولة العثمانية تحت (الانتداب)، ورفض ادعاءات فرنسا في الشام، والاعتراض على المعاهدات السرية وتصريح بلفور.

وإذا كان تقرير اللجنة لم يأت على هوى الفرنسيين كما هو متوقع، فقد ظهر أيضاً خلال زيارة اللجنة للشام ما زاد من حنق فرنسا على بريطانيا، وذلك عندما بحثت اللجنة فيمن يتولى الانتداب على الشام، فاقترحت أن تتولاه الولايات المتحدة، وأنه إذا كان ثمة ما يحول دون ذلك، فقد اقترحت اللجنة تولي بريطانيا الانتداب استناداً إلى رغبة السكان، وبخاصة أن معظم البلاد تحت إدارتها، ولخبرتها في مثل هذا المجال[١].

وعلى الرغم من أنه لم يترتب على زيارة اللجنة وتقريرها أية نتيجة، ذلك أنها عندما وصلت عائدة إلى باريس كان الرئيس ولسن قد غادرها إلى وطنه، ولم يلبث -بسبب موقف مجلس الشيوخ- أن نفض يده من عملية السلام، ومع ذلك أخذت الصحافة الفرنسية تشن حملة شديدة ضد بريطانيا، وتتهمها بتدبير الدعاية المعادية لفرنسا في الشام، كما أخذ المسؤولون الفرنسيون يوجهون الاتهامات إلى نظرائهم البريطانيين، وانزعجت الحكومة البريطانية لهذه الحملة الفرنسية ضدها، مما دفعها إلى اتخاذ قرار في١٣من سبتمبر (أيلول) سنة ١٩١٩ كان له أبلغ الأثر في مستقبل الشام، فقد قررت الحكومة البريطانية سحب قواتها من شمالي الشام (سوريا ولبنان) إلى الجنوب (فلسطين والأردن)، على أن تسلم

(١) د. صلاح العقاد، المرجع السابق، ص ٣٧٧.

داخلية الشام (شرقي خط دمشق/ حمص/ حماة/ حلب) إلى الأمير فيصل، وتسلم حاميات المنطقة غرب الخط إلى القوات الفرنسية، وهكذا تركت بريطانيا الأمير فيصلاً يواجه فرنسا وحده، وأعلنت فرنسا أنه يجب أن تصل وحدها إلى اتفاق مع العرب دون تدخل أية دولة في انتداب الدولة الأخرى، ولم تلبث وزارة الخارجية الفرنسية أن اختارت رجلاً عسكرياً هو الجنرال جورو ليقود القوات الفرنسية ويصبح كبير ممثلي فرنسا في الشرق خلفاً لجورج بيكو[1].

وقد أدى قرار بريطانيا بسحب قواتها من شمالي الشام إلى حالة من الفوران، وأصبحت كل الجماعات السياسية في الشام تناصب الفرنسيين العداء، بل تعبر عن عدائها للأوربيين جميعاً بما فيهم البريطانيون، وبخاصة أن الفرنسيين قد أخذوا يعززون قواتهم بقصد احتلال إقليم البقاع، ولقد صدق هوجارث Hogarth عندما قال: «إن الفرنسيين تمسكوا بموقفهم، أما الأمريكيون الذين أرسلتهم السماء فقد اختفوا، وأما فيصل فقد كان يحظى بتأييدنا في المناقشات لا في ساعة العمل والجد، وبعد أن دفعناه إلى مجالس باريس بصفته مندوباً عن أمة حليفة، تركناه يعود إلى بلاده ليخبر أمته أنه - باستثناء الحجاز- سيكون استقلالهم في واقع الأمر خضوعاً لدولتين أجنبيتين مدة غير محدودة».

وتتابعت الأحداث في الشام إزاء ازدياد حدة التوتر بين الأهلين، فاجتمع المؤتمر السوري العام، وقرر في السابع من مارس (آذار) سنة ١٩٢٠ إعلان استقلال بلاد الشام بحدودها الطبيعية استقلالاً تاماً، والمناداة بفيصل

(١) نجيب الأرمنازي، سوريا من الاحتلال حتى الجلاء، ص ٥٧-٥٨ .

ابن الحسين ملكاً دستورياً عليها، ورفض مطالبة الصهيونية بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود، وانتهاء حكومات الاحتلال العسكري القائمة في شرقي الشام وغربيه وجنوبيه، على أن تقوم بدلاً منها حكومة نيابية مسؤولة أمام المؤتمر، على أن تدار أقاليم الدولة الجديدة على أساس اللامركزية الإدارية، وعلى أن تراعى أماني اللبنانيين الوطنية في طريقة إدارة لبنان داخل حدوده المعروفة قبل الحرب، بشرط أن يكون بمعزل عن أي تأثير أجنبي[1].

وعندما اتفقت كلمة السوريين على ضرورة إعلان استقلال سوريا رسمياً، وتولية فيصل ملكاً عليها لمواجهة الدول بالأمر الواقع، أراد فيصل أن يرضي والده وأخاه الأمير عبد الله بإعلان استقلال العراق وتتويج عبد الله ملكاً عليه، وذلك عندما طلب فيصل من العراقيين في سوريا تأليف هيئة على شكل مؤتمر عراقي يجتمع إلى جانب المؤتمر السوري، ويعلن استقلال العراق تحت حكم الأمير عبد الله، فاجتمع العراقيون في سوريا في دار نوري السعيد في دمشق وانتخبوا خمسة وعشرين عضواً تكون منهم المؤتمر العراقي في ٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٢٠، وأصدر المؤتمر العراقي قراراً مماثلاً لقرار المؤتمر السوري معلناً استقلال العراق تحت حكم الأمير عبد الله، ودعا المؤتمر أيضاً إلى إنهاء الاحتلال البريطاني للعراق على أن يكون بين القطرين الشقيقين (سوريا والعراق) اتحاد سياسي واقتصادي، ووجهت الدعوة إلى الأمير عبد الله للحضور في سوريا على مقربة من حدود العراق، ولكن الأمير عبد الله رد على الدعوة التي وجهها إليه المؤتمر العراقي بأنه لا يستطيع المجيء في ذلك الوقت لأسباب تمنعه من السفر

(١) نجيب الأرمنازي، سوريا من الاحتلال حتى الجلاء، ص ٥٧-٥٨ .

«وشكر للعراقيين إحساساتهم الجميلة».

وأثار القراران (الخاصان بالشام والعراق) الحليفتين الغربيتين اللتين اعتبرتا هذا العمل عصياناً واستباقاً لمقررات مؤتمر الصلح، وإزاء ما تضمنه القراران من مساس بمخططات بريطانيا إزاء العراق وفلسطين، تفاهمت الحكومة البريطانية مع الحكومة الفرنسية، وأرادت الدولتان إفساد هذه القرارات. وبدون الولايات المتحدة التي قررت الانسحاب من أي دور في تسويات السلام، اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى في سان ريمو بين التاسع عشر والسادس والعشرين من أبريل (نيسان) سنة ١٩٢٠، وفي الخامس والعشرين من الشهر صدر القرار بأن تتولى بريطانيا الانتداب على العراق وجنوبي الشام (فلسطين وشرقي الأردن)، وتتولى فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان، دون أن يؤخذ في الاعتبار ما نصت عليه الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، التي تمت الموافقة عليه في الثامن والعشرين من يونيو (حزيران) سنة ١٩١٩، والتي نصت على أنه: «لرغبات الأهلين الاعتبار الرئيسي في اختيار الدولة المنتدبة»، وقد اعترف لويد جورج نفسه بأن نظام الانتداب كان بديلاً للاستعمار القديم[١].

وهكذا أصيبت الأماني القومية لعرب المشرق في الصميم على يد (الأصدقاء) بعدما بذل العرب من الجهد في سبيل التحرر من حكم الأتراك ومساعدة الحلفاء على إحراز النصر، ولذلك قامت المظاهرات وعم الاضطراب في كل أنحاء المدن السورية احتجاجاً على الانتداب الذي يعد تحدياً للقومية السورية، وأصدرت الحكومة برئاسة هاشم الأتاسي قرارات

(١) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص ٣٥٦.

لمواجهة الموقف مثل قانون الخدمة العسكرية الإجبارية، كما أخذ الفدائيون في مهاجمة المراكز الفرنسية في سوريا ولبنان، فردت الحكومة الفرنسية بحشد قواتها على الحدود السورية.

وقد استاء الملك حسين والأمير عبد الله من موقف فيصل، وأوفد الملك حسين الأمير عبد الله إلى القاهرة لمباحثة الجنرال اللنبي في الفترة بين ٢٦ من أبريل (نيسان) و١١ من مايو (أيار) سنة ١٩٢٠، وأبلغ عبدُ الله اللنبيَّ بأن والده يرى أن من حقه هو دون فيصل تمثيل كل الأقطار العربية في مؤتمر الصلح على أن ينوب عنه الأمير عبد الله، ورد اللنبي بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تعترف بحق الملك حسين في التحدث باسم بلاد كسوريا والعراق، حيث لم يختره أهلها للتحدث باسمهم، وأن المسألة برمتها قد انتقلت من يد الحكومة البريطانية إلى المجلس الأعلى للحلفاء.

وقد ترتب على هذه الزيارة أن صار اللنبي يعتقد أنه إذا أسند للأمير عبد الله منصب مهم، فإنه سيتبع النصيحة ويكون سهل الانقياد وعلى استعداد للامتثال لسياسة الحكومة البريطانية[١].

وفي ١٤من يوليو (تموز) سنة ١٩٢٠ -العيد القومي لفرنسا- أرسل الجنرال جورو إنذاراً إلى فيصل، ورغم معارضة بعض أعضاء الوزارة السورية لقبول الإنذار، بعث فيصل ببرقية إلى جورو يبلغه بقبول الإنذار والشروع في تنفيذ شروطه، وتعلل جورو بعدم وصول برقية فيصل في الوقت المحدد، وتقدمت القوات الفرنسية لتلتقي بقوات فيصل بقيادة يوسف العظمة، ودارت معركة ميسلون في ٢٤من يوليو (تموز) التي انتهت

(١) د. أحمد طربين، الوحدة العربية، ص ١٦٨.

بهزيمة السوريين واستشهاد يوسف العظمة ودخول الفرنسيين دمشق.

ولم يمض غير قليل حتى راجت أنباء بأن الأمير عبد الله بن الحسين موجود في معان يجمع القبائل حوله للهجوم على الفرنسيين في سوريا، ووصلت هذه الأنباء إلى سير هربرت صمويل Samuel المندوب السامي البريطاني في فلسطين، فسارع بإبلاغ هذه المعلومات إلى قنصل فرنسا العام في القدس لكي تحتاط الإدارة الفرنسية في سوريا، كما انتهز وزير الخارجية البريطانية فرصة وجود فيصل في لندن بعد طرده من دمشق، وأبلغه أن الحكومة البريطانية ستقف في وجه أي عمل معاد للفرنسيين، وطلب من ممثلي بريطانيا في جدة والقدس أن يعلنا أن الحكومة البريطانية لن تشجع أي عمل تقدم عليه السلطات الحجازية ويضر المصالح الفرنسية في الشام[1].

(١) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص ٣٧٥.